النفس المادية والنفس الروحية

نعلم أن الحقيقة المجردة عن الخيال لا تأخذ من النفوس مأخذاً ولا تترك فى القلب أثراً أكثر منها فيه وأحسب أن تعليل ذلك ما نراه مطوياً تحت دخائل النفس من عقائد ومذاهب وآراء ، وإنما هو أثر من آثار الخيال الذهنى فما الحقيقة إلا بنت الخيال ، فمن ذلك مثلا أن فى طبائع الامزجة والنفوس ماهو أن النفس المادية أحط شأناً وأصغر قيمة فى جوهرها ومعناها من النفس الشعرية ، فان الظاهر الذى يبدو لنا فى الحياة أن السعادة لازمة ضرورية من لوازم الانس ، ولمناسبة اشتقاق الانسان من كلمة الانس كان بطبيعة الحال — ولا خلاص من تلك الطبيعة — حب المال والغلو فى تقديسه بقدر ما هنالك من الشقاء.

ولأن التقدير للشىء يرجع الى إسناد عدم الحصول عليه. بيد أن هنالك تفاوتا فى حب المال وتقديره ، هذا مع علمنا بأن الانسان مادى حتى يعلم أن ليس هنالك سعادة بغير المال ، وإنما ذلك التفاوت فى التقدير يرجع الى مصدر واحد هو تعداد الأمزجة لنفوسها ولان النفس كما تقدم نفسان : نفس مادية ، وأخرى روحية مكتئبة . الاولى تقف عند مظاهر الحياة ومرآئها إذ تنظر الى الاشياء من حيث قيمتها لا من حيث جوهرها ومعناها فأصبحوا بذلك أقل حرارة وأخف شعوراً فى العواطف النفسانية . إذ الشعور راكد لا تثيره شتى العواطف والدروس الحيوية ، فهم أبداً ساكنون الى الحياة والاحياء لا يخفلون إلا بمطالبهم ومطامعهم فيها مادامو قد هجروا عالم الروح ، وما به من آمال وأمان ولذة لاهوتية الى عالم المادة ذلك العالم المنظور المحسوس الذى لا يملأ العين منه إلا الثرى .

فالنفوس تتمايز فى تحديد السعادة للاجساد التى تحملها وترجع فى ذلك الى مجاراة أهوائها والأمزجة فى تهافتها على بدرات الحياة ، ومنها ترجع الى أهوائها تلك التى تكون شقاء أو سعادة . من ذلك أن أصحاب النفس الثانية هم الذين سكن نفوسهم الالم وهى فارغة وملأ بطونهم وهى جائعة بعوامل وظروف أدت الى جعلهم يرون فى مصارعة الحياة بشرورها لذة لا تعدلها لذة وفرح لا يعدله سرور ، فلا يخضعون للحوادث مهما ملئت بدروس قاسية . ولا تذل لها نفوسهم ولا تلين أمامها عزائمهم ، إذ يرون فى ذلك قبساً ينير طريقهم الى حيث طريق سراب

الخيال ومدينة الخلود و بذلك يخرجون للعالم آراءهم ونظرياتهم فى أسفار ضخمة بها تعدد العلوم والمعارف . فهم الذين صفت قلوبهم فأصبحت صوراً صغرى للعالم السامي ، يرى فيهم الرائى الخير واضحاً والدموع منهلة والاخلاص محلواً ، فهم أصحاب الملكات الشعرية الحساسة يبكون لبكاء البؤساء المنكوبين وتدمع عيونهم سروراً لضحكات الطفل الطاهر و يلتهبون شوقاً الى استماع كلمة الفضيلة من فم العذراء ، و بسمة الفرح من الاشقياء ، فهم الذين قد أشرقوا على الطبيعة شموساً وأقماراً فأخرجوا بدائع رائعة وفنوناً مجهولة ومزايا حقت لهم منذ بدء الخليقة ، فنحن مدينون لهم بتلك الايادى البيضاء التى كان لها الاثر والفضل فى بعث تلك المعارف وافادة المجتمع بفوائدها . أولئك هم أصحاب النفس الروحية المكتئبة الذين هم ببكائهم سعداء و بتطرفهم فى اعتزالهم الحياة ومخاصمة الاحياء والنفور منهم فى هناءة .

ولعل الظاهر الذى أثار فى نفوسهم حب مصارعة الحياة والتجلد أمامها والاستعانة على الكفاح بالكتابة أو الشعر أو الموسيقي أو بأى الفنون هو ما يتصورونه من أن الشقاء فى هذا العالم ضرورى ومن لوازم النوع الانسانى ولا سبيل إلى التخلص منه إلا من طريق العدم المحض والفناء اللانهائي .

وتلك صورة تمثل لك ذلك واضحاً جلياً هي من صنيعة صاحب النفس الروحية المكتئبة أبى العلاء المعرى إذ يقول :

ألا تفكرت قبل النسل فى زمن ... به حلات فتدرى أين تلقيه ؟
ترجو له من نعيم الدهر ممتنعاً ... وما علمت بأن العيش يشقيه ؟

وأصحاب النفس الروحية لا يريدون من المرأة الممتع بجسدها البض بل يرون فى طلب نفسها الكامنة فيها ما يغنى عن الشهوات ، فهم أبداً مؤمنون بالازلية وخلود الارواح ، نعم إنهم لا يطلبون من المرأة صلة الزوج بالزوجة بل صلة القلب بالقلب ، فما أحسن تلك النفوس التى لها من أهوائها شرائع حكيمة ونواميس سديدة الخطوات .

و إننا لنراهم غرباء عن هذا العالم لان من خلالهم أن يزدروا كل لذة إلا لذة الحب وكل جمال غير جمال الادب والخيال مع كساد نراه وعدم رواج فى حب الآداب والافتتان بها . و بحكم التحليل والبحث نرى أن من العادات الذميمة فيهم كثرة العزة النفسية لحد لا يوصف به غيرهم دون سواهم مما يجعلهم لا يستطيعون تحايلا لعيشتهم . ومثال ذلك ماقاله صاحب النفس المكتئبة أبو العلاء المعرى :

وأقصانى عن الرؤساء كوني وكونهم لخالقنا عبيداً

فالنفس المادية لا تلتئم بالنفس الروحية بحال من الاحوال، ولا تجد السعادة بقربها والهدوء بجانبها ، فمن ذلك نرى وكثيراً ما نرى أن من أكبر الهفوات التى لا تغتفر فى مسألة الزواج أن الناس يتساءلون عن الجمال والمال والنسب غير مبالين بأساس وعماد كل تلك الاشياء والمطالب ألا وهو دراسة مزاج كل من العروسين قبل الاقتران ، فلا يهولن الرجل من الرجل أنه يرى كبير أو قائد عظيم أو ملك قدير ، فكل أولئك ماديون فى مطامعهم وما الدموع عندهم إلا من صفات الاطفال ، وما كلمة الحظ إلا من مترادفات الالفاظ، وما الشعر والشعراء إلا أداة للبطالة والكسل ، فهم أبداً ينظرون إلى الاشياء نظرة المستهتر بتكوينها كأنما يظنون أن الذى منحهم ظروفا سعيدة ستدوم أمداً بعيداً، فهم مخطئون إذ لا دائم إلا صداقة الفقر، ولا رابطة تربط الامم إلا صلة الانسانية لاوثاق التجارة والاستعمار .

لهذا كان الفضل راجحاً للنفس الروحية حتى فى التفكير فى بدائع المخلوقات ومعرفة الخالق . ولذلك نجد أصحابها يقدرون عظمة الله ويؤمنون بها أكثر إيماناً من الماديين ، إذ الماديون يعتمدون فى تفكيرهم على نظم وضعية وليس تفكيرهم إلا تفكيراً تجريدياً ولا قيمة لمثل هذا ، إذ التفكير الصحيح الدخول به الى ساحة الفن والمجادلة وبذلك كان الماديون أشبه بالانعام يعيشون ليأكلوا عكساً للروحيين الذين يأكلون ليعيشوا . وتلك الفكرة عن النفسين المادية والروحية ليست مجرد استدلال منطقى ولكنها شىء واقع فى نفس ألوان الحياة الاجتماعية فالقلم يتكلم عن موضوع لا يختص ببلد واحد ومدينة دون سواها ، وإنما يتكلم عن بحث موضوع عالمى تكون الفائدة منه أتم لو انبرى الأفاضل فى الكتابة عليه والوقوف على أحسن طريق وأنجع علاج لمعالجة الامزجة لنفوسها ، ولظهر لنا أثر حسن من نتيجة تفكيرنا فى ذلك ، وإنما لما سلف من القول نقول إن الماديين أشبه بالمملكة الحيوانية التى قسمها العلماء إلى ذوات الدم البارد وذوات الدم الحار فمن أمثلة النوع الاول السمك الذى هو صورة صغرى للماديين فى عدم تأثرهم بالعواطف أما أصحاب النفوس الشعرية .. م كالقسم الثانى من المملكة الحيوانية ذلك القسم الذى من ذوات الدم الحار والذى تنتمي إليه الطيور المتأثرة بالعواطف والحيوانات الثديية . ومن تلك الوجهة كان الخطر على المجتمع عظيما إذ أن أصحاب النفوس الشعرية لا يصلحون لسياسة الشعوب وحكمها وغير ذلك من الضرر الذى يحدثه الماديون إن وضعوا فى غير ما لا يليق بهم من استغلال المواهب . وبذلك يصبح مصير الامم والشعوب خاضعاً لتعداد الامزجة واختلاف

الاهواء وتحت رحمة المطامع والأمانى . وهذا هو مصدر الخلاف وسوء التفاهم بين الدول قديما وحديثاً وبذلك نتجت الحروب . فقضية واحدة من ملك مادي فى سبيل اهوائه تقلب كيان النظم وتحطم كيان الدساتير وتضع الحكام على أبواب كارثة وهذا ما أصبح تفكيرا يحسب حسابه ويرصد جوه إذ فى تعداد الامزجة ومجاراة الاهواء ماقد يقذف بهدوء العالم إلى هوة الفزع ، وإنه لظاهر لنا أثر اختلاف الامزجة من قديم الزمان وسالف العصور حينما كان الناس قطعانا من الوحوش يسكنون الغابات وذلك ماتراه واضحا فى قصة هابيل وقابيل ، ولأن مثل المعرى الشاعر الرومانتيكى الذى يحرم الزواج بقوله :

هـذا جناه أبى على وما جنيت على أحـد

لا يصح البتـة أن يكون ملـكا . وإن كانت هناك عوامل فعالة قد جعلته ملـكا إذا لـكان من جراء فكرته تحريم الزواج وأمره الناس بالنزول عند طاعته ، ماهو إلا أن يغير نواميس الطبيعة البشرية ولحصل هناك مأساة يتحدث بها لسان الدهر .

ولو قدر الله مثلا لفكرة افلاطون فى مدينته التى تخيلها وكتب عليها — لوصح أن قدر لها بالظهور والعمل بها لكان إذن كل شىء اشتراكى من مال وامرأة ملك شائع لكل انسان ولكان هناك من يجامع نساء أبيه وأخيه . وعلى هذا أقر بيا كان أم بعيداً لا يصل الباحث إلى دواء ناجع لمداواة الانفس .

وأما وقد محى العـالم السواد الاعظم من أصحاب النفوس الروحيـة وأصبح العالم كله يعبد المادة ويسجد أمام وثن ملاحتها أصبح الكاتب أو الباحث لا يفرق بين نفس البائع أو العامل أو الملك إذ أن لكل من تلك الانفس مأربا واحداً ومحورا يدور حواليه ألا وهو طلب المال والسعى وراءه وغض النظر عما يخالف ذلك من المطالب ، فأصبحنا نرى الا اختلاف بين المطامع ونبرات الاصوات والافكار إذ الـكل يرجع إلى مصدر واحد وهو المال وإننا لو أنعمنا النظر فى صفحات التاريخ لرأينا أن النفسين كان لهما التأثير والاثر الاكبر فى سياسة العالم وحكمه ، ولوجدنا أن أصحاب النفس المادية أرسخ قدما فى الحـكم والحظوة والجاه وتعليل ذلك أن أصحاب تلك النفس لا يؤمنون بما يقول أبو العلا المعري :

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب فى ازدياد
إن حزنا فى ساعة الموت أضعاف سرور فى ساعة الميـلاد

بدوى طه علام